الفصح الأوّل في أرض كنعان (يش ٥: ١٠-١٢)

الخوري جان عزام
دكتور في الكتاب المقدّس
المدرسة الاكليريكيّة البطريركيّة المارونيّة - غزير

مقدمة

تبدأ مسيرة شعب الله من ارض الذل والعبودية باحتفال فصحي خلاصي، كان بمثابة الخطوة الاولى والاساسية الى حياة الحرية.

هكذا بدأت قصة الخروج من مصر (خر ١٢-١٥)، وهكذا ستبدأ مسيرة شعب الله في ارض الموعد والحياة الجديدة باحتفال فصحي ذي طابع مميّز يخبرنا عنه سفر يشوع بن نون. وهذا الفصح الجديد سيكون بمثابة الخطوة الاولى في تحمّل الشعب مسؤولية الحريّة في عبادة الله الواحد داخل ارض مليئة باخطار الوثنية وشتى العبوديات الدينية والاخلاقية.

أ- معبد جلجال

يقف معبد جلجال شاهداً لعبور شعب الله نهر الاردن بالعلامات الليتورجية والايات الالهية نفسها التي تؤكد ان هذا العبور لم يكن مجرد دخول ارض لامتلاكها والعيش فيها.

انه عبور الى ارض الايمان والشهادة لله الواحد. انه العبور الفصحي نفسه الذي حدث عند بحر القصب: العبور الاول كان من العبودية، اما العبور الحالي فانه لاجل العبادة (يش ٣). وفي كلتا الحالتين يبدو العبور كزياح ليتورجي شعبي لشعب يقوده الله للعبور في قلب المياه العاتية دون ان يموت، ودون ان تقف المياه حاجزاً امامه.

معبد جلجال هو الذي سيشهد اقامة اول نصب تذكاري من اثني عشر حجراً، رمزاً لاسباط اسرائيل الاثني عشر الذين اختبروا يد الله القديرة عند عبورهم الاردن (يش ٤: ٢٣-٢٤). ومعبد جلجال سيكون الشاهد على اعظم حدث ايماني، اعني احتفال الفصح الاول في ارض كنعان، ارض المواعد الالهية الصادقة والامينة.

ب- الفصح الاول!

لدى احتفالهم بالفصح في ارض مصر، اكل العبرانيون «خبز العبودية»، ذاك الخبز الذي كان ممتزجاً بالمرارة! وعند احتفالات الفصح إبّان مسيرتهم اربعين سنة في الصحراء، اكلوا الخبز النازل من السماء كعلامة تدل على العناية الالهية الدائمة بهم: فالصحراء هي المكان الذي اختبروا فيه ان الله وحده هو الاله ومنه كلّ خير!

امّا عند دخولهم ارض الميعاد، فقد تميّز احتفال الفصح فيها باختبار جديد، هو اختبار عطية الارض وما فيها من خيرات عميمة. لقد توقفت العناية الالهية عن اعطائهم الخبز النازل من السماء، وصارت الارض كلها تُنبت لهم الخبز والخيرات الالهية. واذا كان خبز مصر هو خبز العبودية والمرارة، وخبز الصحراء هو خبز العناية الالهية، فخبز ارض الميعاد هو خبز حرّية ابناء الله؛ وهذا ما يعنيه انقطاع المنّ منذ الفصح الاول في ارض الميعاد (يش ٥: ١٢).

ج- معنى الفصح في ارض الميعاد

نقرأ في نص يش ٥: ٢-٩ أن الله امر يشوع بن نون ان يختن كلّ ذكر من الشعب الذي دخل ارض الميعاد، حيث ان الكاتب يشرح أن المسيرة في الصحراء اجبرت الاجيال الذين ولدوا فيها الاّ يختنوا ليكونوا قادرين على السير في كلّ لحظة يأمرهم الرب بذلك.

والمعروف ان الختان كان له عند

الشعوب البدائية معنى الانتقال من مرحلة الطفولة الى مرحلة الرجولة. فالشاب المختون لا يبقى مع الاطفال بل ينتقل الى مجتمع البالغين المستعدّين للزواج وتحمل المسؤولية العائلية.

ولا شك ان هذا المعنى البدائي قد تحوّل مع ابراهيم والاباء الى معنى لاهوتي جديد، فصار يعني الانتقال من حالة الوثنية الى الايمان بالله. هذا ما طلبه الله من ابراهيم عندما امره بان يختتن وكلّ ذكر في بيته كعلامة للعهد، عهد الحبّ بينه وبينهم (تك ١٧: ٩-١٤). ان الختان هنا هو ختم لايمان ابراهيم. وهذا هو المعنى الذي سيظل للختان طيلة مسيرة الايمان في العهد القديم.

اما في النص الذي ندرسه هنا فمن الواضح ان معنى الختن مرتبط ايضاً بذاك الايمان عينه: فمن يستطيع ان يحتفل بالفصح ان لم يكن مؤمناً! وهل يكفي العبور من ضفة نهر الاردن الى ضفته الاخرى حتى يصبح الانسان منتمياً الى شعب الله؟ فان كان الانسان لم يختبر حقاً حبّ الله له، وعنايته به، وقدرته الخلاصية في حياته، فكيف يمكنه ان يحتفل بالفصح؟

فليس الختان بحدّ ذاته الاّ علامة على الايمان بالله والانتماء الى شعب الايمان. هكذا، فكلّ الذين كانوا يستعدّون للاحتفال بالفصح، اعلنوا ايمانهم هذا جهاراً، بأن اختتنوا وازالوا عار العبودية عنهم (رج ٥: ٩).

خاتمة

العبور والختان والفصح وغيرها من الاحداث التي ميزت دخول شعب الله ارضه المقدسة، تذكرنا بان الله هو الذي يصنع التاريخ ويقوده الى حيث يريد. وهذا التاريخ مفتوح على كل البشر وكل الشعوب. وان كان الشعب العبراني القديم قد نال تلك الكلمة العظيمة حين اختير ليكون محور التاريخ الخلاصي، فان هذا الشعب لم يكن «مختاراً» بانتمائه العنصري والجسدي، بل بانتمائه الايماني لابراهيم ونسله! نعم، ان الذين من بين هذا الشعب لم يؤمنوا، وفضّلوا «بصل مصر وثومها»، خرجوا من التاريخ الخلاصي، ولم ينفعهم انتماؤهم الجسدي الى شعب اسرائيل.

بهذا المعنى نفهم ايضاً معنى تشديد العهد الجديد على «الانتماء الى ابراهيم» بالايمان، كونه الانتماء الوحيد الثابت الذي قاد كثيراً من العبرانيين وكثيراً من شعوب الأمم للايمان بيسوع المسيح الذي هو فصحنا الحقيقي، وهو الذي عبّرنا من ارض ميعاد بشرية الى ارض ميعاد روحية. وعبورنا نحن ايضاً كان من خلال الموت، موت المسيح عنا، الى حياة جديدة كأبناء لله. لهذا فاننا نحن صرنا شعب الفصح الجديد، فصح القيامة. امّا الذين ما قبلوا الايمان، فانهم عجزوا مرة جديدة عن العبور وبقوا في فصحهم العتيق وكأن تاريخ الخلاص يكمّل الآن من دونهم!

Octateuque, Constantinople, XI^e siècle. Vatican, Biblioteca Apostolica, ms. gr. 747, f° 223v/3.

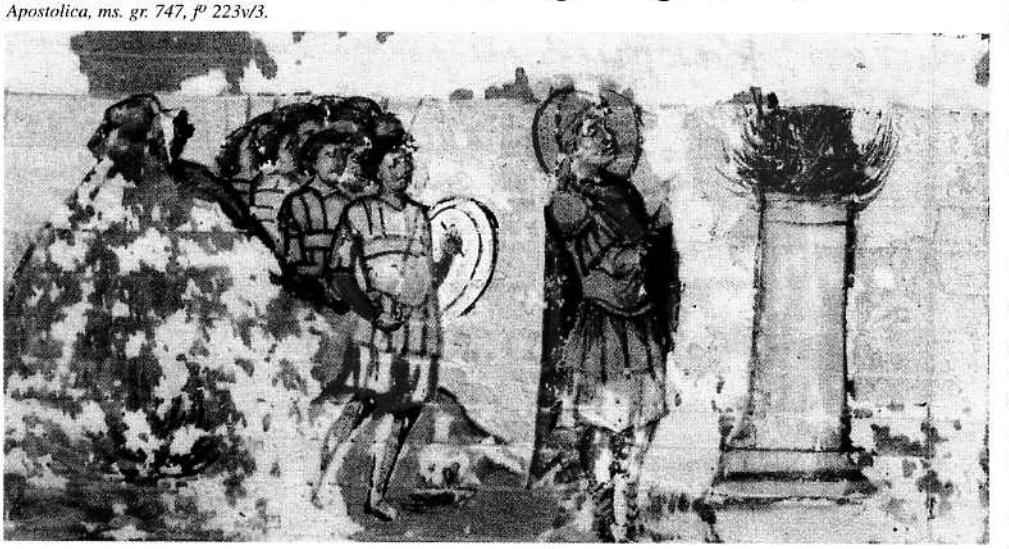

يشوع يبني معبدًا لإله إسرائيل على جبل عيبال
(يش ٨: ٣٠)